مظاهر الاستخدام الغربي للخطاب الإسلامي المتشدّد

الدكتورة نعيمة نصيب

أستاذة محاضرة -بجامعة قالمة-

مقدمة :

منذ انهيار الإتحاد السوفياتي، دخل المجتمع الدولي في حالة من النقاشات المستمرة المتداخلة والمتناقضة في كثير من الأحيان والتي بالرغم من أنها تحاول ان تتجاوز فكرة الحوار الإيديولوجي، إلا أنها لم تستطع أن تخرج عن هذا الإطار، من خلال الإيديولوجيا الأمريكية التي أصبحت القائد الوحيد للعالم، الذي بدأ في رحلة البحث عن عدو يمكنه من إمتصاص التوترات الداخلية التي تهدد تماسكه .

وبطبيعة الحال فإن المثقفين الغرب قد وجهوا جهودهم للبحث عن هذا الذي يمكن أن يلعب هذا الدور، وتوصلوا إلى فكرة " الأصوليات الدينية " والتي اختصرت بشكل ملفت للنظر في الدين الإسلامي، " فهنتنجتون " مهندس مقولة صراع الحضارات يؤكد أن الصراع الحضاري القادم بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية والتي ستأخذ الطابع العنيف، حيث يقول " إن للإسلام حدودا دامية " وقد وجدت هذه المقولة ما يبررها في العالم الإسلامي، نتيجة للصراعات السياسية والأوضاع الدامية والقاسية فيما بين المسلمين أنفسهم، والتي أصبحت تغذيها العديد من الأفكار والدعوات المتشددة اتجاه المسلمين أو غيرهم، وفي هذا الإطار سنحاول في مداخلتنا مناقشة كيف استخدمت مثل هذه المظاهر والخطابات الخاصة بالمسلمين في تحديد علاقات دولية جديدة وفي تفاعلات العالم مع :

- 01 الإسلام كدين والثقافة الإسلامية ككل
- 02المهاجرين المسلمين
- 03 الدول الإسلامية.

1- طبيعة الخطاب الديني المتشدّد :

لقد بدأ الخطاب الديني الإسلامي المتشدد في الوطن العربي، مباشرة بعد حروب الإستقلال الوطني، ثم عرف أوجه من خلال الإسلام السياسي الذي ظهر في مرحلة الثمانينات والتسعينات، حيث شهدت كل البلدان الإسلامية نصيبا من هذا النوع من الخطاب، هذا الأخير الذي يحمل في غالبه فكرا إنعزاليا من خلال التقوقع على الذات والإبتعاد قدر الإمكان عن التواصل مع بقية العالم، لاسيما منه العالم الغربي المادي.

يتميز الخطاب الإسلامي المتشدد بسيطرة الفكرة القائلة إن الإسلام وحده هو القادر على احتواء حياة الإنسان كلها وبتفاصيلها، دون الحاجة إلى الإقتباس من الغرب وذلك نظرا لتميزه بنظمه وقوانينه وطرق تسييره لحياة الإنسان عن المفاهيم والقوانين الغربية(1)، ولم يعمل هذا الخطاب على تفعيل فكرة التمايز هذه بالعمل على إعطاء حركية للفكر الإسلامي، من خلال استعمال ما هو معروف لاستجلاء الغامض والمجهول منه، بل إنها لم تعمل إلا على جمع المعلومات والعودة إلى تراكمات الماضي (2) مما أدى إلى تراجع هذا الفكر في حد ذاته، وجعله كتلة جامدة لا تخضع للمناقشة والتمحيص فالمسلمون منذ القرن الحادي عشر توقفوا عن إنتاج أي عمل علمي، فأعمالهم لم تخرج عن دائرة التوثيق، وحتى بالنسبة للجانب العلمي الطبيعي فإنهم لم يذهبوا إلى أكثر من تأكيد الاكتشافات المحققة وارتباطها بالقرآن ولم يعمدوا إلى تقصي معطيات هذا الأخير والبحث فيها وبالتالي تقديم عمل معرفي جديد، لقد أصيب التراث العربي بقطيعة في مختلف المجالات الفكرية

والثقافية والسياسية منذ القرن الحادي عشر حيث أصبحت جل العلوم سيكولاستيكية تنقل وتحفّظ للأجيال دون إعطاء الفرصة لهذه الأخيرة لمحاولة القراءة والنقد.

والإسلام كما نعرف جميعنا دين النشاط ودين الاجتهاد وهو الذي يرى أن الذي يجتهد ويخطيء فله أجر والذي يجتهد ويفلح له أجران، بالإضافة إلى الجمود الفكري لمثل هذا الخطاب الديني، فإن المعرفة عند متبعيه لم تخرج عن إطار الدائرة المغلقة، التي تتوافق بمد حدده السلف الصالح، والتخلي عن إعمال الفكر الذي يحلل ويناقش ويتفاعل مع المتغيرات الحاصلة بطريقة إيجابية تماما كما فعل هذا السلف، لقد تفاعل مع الحضارة الفارسية والإغريقية ومختلف الحضارات الأخرى ووضع معطياته هو محل تمحيص وتجديد مستثمرا دعوة الإسلام إلى الاجتهاد وكون بذلك الحضارة الإسلامية بأبعاد أخلاقية وجمالية وسياسية وثقافية يشهد لها التاريخ .

إن حاملي الفكر الإسلامي المتشدد تجاهلوا تماما مثل هذه الديناميكية التي هي جوهر الإسلام، وعملوا باندفاع شديد لفرض فكرة البديل الإسلامي لجميع الديانات والحضارات، فخاطب عواطف الجماهير التي لم تمح من ذاكرتها بعد الجرائم والانتهاكات الغربية للبلدان الإسلامية، سواء في الماضي أو في الحاضر مستخدمين في ذلك أساليب الشتم والقذف في ديانات وثقافات الآخرين ومعتقداتهم وحضاراتهم، بالرغم من أن هذا ليس من أخلاق الدين الإسلامي الذي يدعو دائما إلى الإحسان في كل الأمور مع العدو قبل الصديق فهو الذي يقول:

"وجادلهم بالتي هي أحسن " لقد اتخذ المتشددون موقفا إستعلائيا معاديا للغرب في سعيهم لإقامة الدولة الإسلامية وأختاروا للوصول إلى هذه الغاية النبيلة والمشروعة طريق المقاتلة من خلال الأسلوب المادي واللفظي العنيف(4).

ومن هنا تبدأ الإستخدامات الغربية لمثل هذا الفكر ومنتجيه وذلك من خلال مجموعة من المظاهر سنحاول التفصيل في بعضها.

2- خلق بؤر التوتر في البلاد الإسلامية :

الواقع أن الظروف التي يعيشها الوطن العربي والمستوى الثقافي المتدني جعل مستوى الوعي الوطني يفتقر إلى رؤية إستراتيجية بعيدة المدى تأخذ بعين الاعتبار عملية التغيّر الحاصلة على البنى المختلفة سواء كانت داخلية أو خارجية .

في المقابل لهذه الرؤية المحدودة والضيقة لهؤلاء المتشددين فإن هناك رؤية غربية بعيدة المدى لاستغلال مثل هذا الخطاب واستخدامه لخدمة مصالحها القريبة والبعيدة، حيث تم إستقبالهم وإيوائهم وحمايتهم من الملاحقات القانونية ودعمهم فترة طويلة ودعم الأفكار التي يحملونها، بالرغم مما تحمله هذه الأفكار من عداء اتجاه الغرب والحضارة الغربية لكن تم تجاوز ذلك مؤقتا طالما أنها موجهة بالدرجة الأولى لضرب الوطن العربي وغيرهم من المسلمين، فأستغل نشاطهم لضرب البنى التحتية لبلاد الإسلام بأيدي المسلمين أنفسهم، وخلق إنقسامات بينهم ترتب عنها آثار من الصعب جبرها (5)، فانتشرت حالات التوتر المستمر وعدم الثقة وانهارت البنى القيمية للمجتمع العربي الإسلامي، لأن أغلبها مستمدة من هذا الدين الذي باسمه أصبح العالم يرى أبشع الجرائم، الشيء الذي يضع القيم السامية التي يحملها موضع تساؤلات كثيرة واستغلالات متعددة الاتجاهات.

ونتيجة هذا الدعم فقد تم تزويد هؤلاء الأطراف بما يحتاجونه من أدوات لإدخال البلاد الإسلامية في حروب أهلية تستنزف قواها المادية والمعنوية، وذلك من خلال توجيه المردود المادي والفكري إلى كيفية صد هذه الانقسامات ومعالجتها وبالتالي الانشغال بها بدل الانشغال بالسبل الكفيلة لتحقيق التنمية في هذا الوطن وهو الأمر الذي أدى إلى

إهدار الثروة العربية والإسلامية في غير موضعها على مدى ثلاثين سنة من الانقسامات.

أما العنصر الثاني المهدر في هذه العملية وهو عنصر قد تفوق أهميته الجانب المادي ويتمثل في عناصر التماسك الاجتماعي الذي تميّز به المجتمع المسلم، وطبعا ذلك من خلال ضرب المقومات الأساسية لهذا التلاحم والتماسك الاجتماعي، والذي لم تستطع قوى الإستعمار على مدار قرون من الزمن إختراقه خارجيا، فكانت الوسيلة الداخلية من أنجع الوسائل وأشدها فعالية، نظرا لأن عملية التدمير هذه تتم بواسطة القيمة الحاوية لبقية القيم وهو الإسلام فأدى ذلك إلى حالة من الذعر وعدم الإتزان داخل المجتمع وحالات القلق التي تكوّن مجتمعا مهزوزا ثقافيا وقيميا ومشتتا فكريا يعيش حالة من الضياع، والصورة الحقيقية على هذه الحالة تعبر عنها صورة المجتمع الجزائري ومعاناته من مرحلة الإقتتال و" الإرهاب " ثم عملية انهيار القيم التي لحقت هذه المرحلة من خلال إزدياد الجرائم وانتشار ظاهرة الفقر التي كانت عملية التضامن الاجتماعي الذاتي تتحمل العبء الأكبر منها، إضافة إلى حالات الأنانية وانعدام الثقة بين أفراد المجتمع وحتى على المستوى الجزئي داخل الأسرة وكل هذا أدى إلى الاغتراب الاجتماعي .

3- مرحلة الصراع الحضاري :

بعد أن أخذ العالم صورة عن سلوكات المسلمين وتوجهاتهم العنيفة والهمجية في التفاعل مع قضاياهم البينية والتدمير الداخلي " للفكرة الحاوية " تأتي المرحلة الثانية وهي التدمير الخارجي لها وهي مرحلة صراع الحضارات من خلال التشويه العام لها بمنطلقات عقلية موضوعية علمية تنظيرية، وقد تزعم إدارة هذه العملية " صموئيل هنتنغتون " برؤية أن العالم سوف يدخل في صراعات جديدة أبعادها مستمدة من عناصر ثقافية مضادة للحضارة الغربية، وقد حددها في تسع حضارات تتأقلم أغلبها تدريجيا مع هذه الأخيرة

وتبقى الحضارة الإسلامية التي تتميز شعوبها بمعدلات نمو سكاني مرتفعة جدا إضافة إلى أن العالم الإسلامي يتميز بالإرهاب، الأصولية، الهجرة والتمرد وبالتالي من الصعب إحتوائه من قبل الحضارة الغربية (6)، وبطبيعة الحال فقد تم الترويج لهذه الفكرة باستخدام الفعل العنيف للحركات الإسلامية السياسية، وذلك في محاولة منهم لتحويل الدين الإسلامي إلى مجرد حركة سياسية وتجريده من قدسيته الدينية والروحية وأيضا من سماته الحضارية تمهيدا لاقتلاعه تحت ذريعة النزعة العدوانية المتأصلة في الإسلام، وهذا ما يؤكده هنتنغتون في قوله -إن للإسلام حدودا دامية - ونفس الكلام يردده إثنان من المحافظين الأمريكين هما " بول وريش" و"وليام لند"حيث يقولان:" بكل بساطة الإسلام دين حرب ... يجب أن نشجع المسلمين الأمريكيين على المغادرة " (7) وبالتالي فالعملية هنا لم تتوقف على رفض الفكرة ومعتنقيها في العالم الخارجي فقط بل في معتنقيها من العالم الغربي نفسه الذين أصبحوا محل رفض.

وقد تزايد هذا الرفض بعد الهجومات على مركز التجارة العالمية في 11 سبتمبر هذه الحادثة التي جردت من محتواها كهجوم له مسبباته وأبعادة وأيضا كرمز بعدم فعالية الإحتياطات الأمنية الأمريكية وحصرت في لفظ أحداث 11 سبتمبر وطبعا فإن هذا التلويخ يختصر كل الحقائق والأسباب الخاصة في صورة ذلك البربري المسلم الذي أصبح مفهوم "الإرهاب " مرتبطا به، ويبدو أن الغرب مازال يحمل في ذاكرته التاريخية ملامح العداء القديم تجاه المسلمين , هذه الملامح التي أظهرها أغلب خطابات زعماء الدول الغربية بوش بلييير جاك شيراك, ورئيس الوزراء الإيطالي... إلخ، وكلها خطابات تعيد إنتاج الخطاب الغربي القديم , وقد تدعم الأمر بتعبئة إعلامية مركزة وشاملة من طرف وسائل الإعلام الغربية والأمريكية على الخصوص , عملت من خلالها على نشر حالة من الرعب والخوف مما يسمى " بالإرهاب " مع العمل في الوقت نفسه بإرساء صورة نمطية تربط مباشرة هذا

المفهوم بالديانة الإسلامية والشخصية العربية دون غيرها ففي هذا المجال تقول الصحفية " آن كولتير"(8) في إحدى مقالاتها " يجب أن نغزو بلادهم نقتل قادتهم , ونحولهم إلى المسيحية " ولم تتوقف العملية التشهيرية بالدين الإسلامي والمسلمين عند الإعلاميين بل تعداه إلى رجال الدين المسيحي حيث يقول القس" فرانكلن غرهام " وهو يصف الإسلام أنه " دين كثير الشر والخبث "، هذا ومن الطرائف الواقعية المحزنة ما حدث في إحدى حدائق نيويورك حيث هاجم كلب أحد الأطفال فقام أحد المارة وحاول مساعدة الطفل فقتل الكلب، وكان هناك صحافيا فأخذ له صورة وأخبره بإعجابه بشجاعته موضحا له أنه سينشر مقالا عما حدث بعنوان " شجاعا من نيويورك ينقذ ولدا "، قال له الرجل بأنه ليس نيويوركيا فأخبره أنه سيكون بعنوان شجاعا أمريكيا فأخبره أنه ليس أمريكيا بل من باكستان فصدر المقال في اليوم الموالي بعنوان " مسلم متطرف ينقض على كلب في حديقة نيويورك ويودي بحياته، مكتب FBI بدأ التحقيق في إمكانية وجود علاقة بين هذا الرجل ومنظمة القاعدة التي يرأسها بن لادن "(9) .

لقد ساهم مثل هذا النشاط الرسمي وغير الرسمي في نشر جو من الكراهية والحقد تجاه المسلمين حيث أنه حسب تقرير المرصد الأوروبي للظواهر العنصرية والمعادية للأجانب الذي نشر يوم 25 ماي 2002 (10)، فإن المسلمين في أوروبا تعرضوا إلى إعتداءات متزايدة حيث زادت مشاعر الخوف لديهم مع إزدياد كراهية الأجانب لهم، بالإضافة إلى ذلك فإن التقرير السنوي لمجلس العلاقات الإسلامية الأمريكية والذي نشر يوم 01 ماي 2002 (11)، يؤكد أن أكثر من 60 ألف من مسلمي الولايات المتحدة لوحدها قد تضرروا من خلال التمييز ضدهم والتي تزايدت بعد الهجمات على مركز التجارة العالمية والبنتاغون من 360 حادثة عام 2001 إلى 2200 بعد 11 سبتمبر بالإضافة إلى ذلك فقد

برزت حركات عنصرية جديدة إتخذت صورا مختلفة، لها طابع جماهيري فقد لاحظنا الأحزاب الفائزة في الإنتخابات الأوروبية هي أحزاب لها طبيعة عنصرية والمثال على ذلك فرنسا وألمانيا، وهذا أنتج تزايد تأثيرات الأحزاب والتنظيمات التي لها موقفا سلبيا من المهاجرين الذين لهم أصول عربية إسلامية أو تركية ونادت هذه الدعوات بطردهم من الغرب، وقدم تم ذلك بالفعل فقد أعيد العديد من المهاجرين بحجة مخالفتهم للقوانين بالإضافة إلى تقييد قوانين الهجرة (12).

وعموما فقد ستطاع الغرب أن يعطي صورة سلبية عن المسلمين ودينهم واستطاعوا أن يحققوا تعبئة شعبية واسعة النطاق في هذا المجال.

4- غزو بلاد المسلمين والتدخل في شؤونهم الداخلية:

بعد أن أستغلت الخطابات الدينية المتطرفة من قبل الغرب وعلى رأسهم الولايات المتحدة الأمريكية لزعزعة الاستقرار الداخلي للدول الإسلامية ونشر حالة من الإغتراب القيمي واللامعيارية بين شعوبها ثم تشويه صورتهم على المستوى الخارجي وخلق نوع من الكراهية والرفض العالمي لهم، وذلك من خلال نشر جملة من الأفكار التي ترى بأن هناك ثقافات معينة ذات منطلقات دينية وعقائدية محددة، يحمل المؤمنون بها في تكوينهم الذاتي بذرة التخلف والجمود ورفض الآخرين وعلى الأخص الأمريكيين لا شيء سوى لأنهم الأكثر تفوقا(13).

وبالتالي فهناك رفض عالمي لهذه الفئة من البشر والتي أصبحت الفئة المستهدفة من خلال الحرب على " الإرهاب "، وكانت أولى محطات هذه الحرب أفغانستان أين إستطاعت أن تدمر هذا البلد وتضرب حركة طالبان هذا التنظيم الذي طالما دعمته الولايات المتحدة

الأمريكية أثناء حربه مع الإتحاد السوفياتي وبالتالي فقد أعتبر هذا التنظيم كصمام أمان للولايات المتحدة قبل انهيار الإتحاد السوفياتي، ثم استغل نفس التنظيم بحجة أنه يشكل خطرا على الأمن القومي الأمريكي ولمواجهة هذا الخطر لا بد من الإستيلاء على أفغانستان والسيطرة على ثرواته واستغلال موقعه الإستراتيجي لأغراضها المختلفة، وفي هذا المجال يؤكد العديد من المحللين أن هذا الغزو كان مخططا له مسبقا وأنه كان سيحدث سواء حدثت عملية الهجوم على مركز التجارة أو لم يحدث.

لقد استخدم الخطاب الديني المتطرف أيضا في جعل المنطقة العربية الموقع الرئيسي للإرهاب، وانعكس ذلك على القضية الفلسطينية حيث إن مقاومة هذا الشعب المشروعة في الدفاع عن أرضه أصبحت " إرهابا " يهدد إسرائيل حسب المنظور الأمريكي، ثم جاءت عملية غزو العراق والسيطرة على ثروات هذا البلد الغني وأيضا تدمير تاريخه الحضاري ومرجعيته التاريخية، بالإضافة إلى المحاولات المستمرة لإشعال نار الفتنة بين العراقيين وتحويل هذا البلد الحضاري صاحب التاريخ الكبير إلى مجموعة إثنيات صغيرة متناحرة مشتتة ماديا ومعنويا وحضاريا.

وبعد العراق توجهت بالإتهام إلى كل من سوريا وإيران باعتبارهما دولتان إرهابيتان مع العلم أنه أول من طرح فكرة حوار الحضارات، والعمل على تحويلها إلى ثقافة عالمية تتبناها الأمم المتحدة كبديل لفكرة الصراع الحضاري والحروب الثقافية، وما تحمله هذه الأفكار من توجهات عنصرية كانت من طرف الرئيس الإيراني بالرغم من أن هذه الدولة طالما اعتبرت رمز الخطاب الديني المتطرف وطالما وصفت بالإرهاب وأنها محور الشر.

بالإضافة إلى الاعتداءات المستمرة على الاسلام والمسلمين فهناك أيضا العمل على النيل من الحقوق السيادية للدول الإسلامية والعربية وذلك بدعم القضايا المضادة لهم مثل

دعم الكيان الصهيوني في إعتداءاته على الشعب الفلسطيني والأمة العربية والوقوف إلى جانب إسبانيا ضد المغرب في موضوع جزيرة ليلي وإرغام السودان على التوقيع على إتفاق مع متمردي الجنوب، وكذلك هناك المجهودات الكبيرة للتضييق على المؤسسات الخيرية الإسلامية والحد من نشاطاتها وذلك وفق برامج رقابية غربية تنفذها الحكومات العربية.

كما أن هذه التدخلات لم تتوقف عند هذا الحد بل تعداه إلى مرحلة أعمق وأشمل وذات بعد إستراتيجي، تتحكم من خلاله في الأجيال القادمة حيث إنه في تقرير أعده ثمانية من خبراء الإستراتيجية الأمريكية بطلب من الرئيس بوش مطلع جويلية 2002 يوضح التوجه المقصود ضد الدين الإسلامي، حيث يدعو هذا التقرير إلى التأثير في مناهج التعليم، الديني منه تحديدا ومقاومة تيارات الإنحراف الأصولي والتيارات المعادية "للسلام "(15)

ومن هنا نلاحظ أن هناك توجها شاملا ومعقد الجوانب لإخضاع الشخصية الإسلامية.

الخاتمة:

إن الخطاب الديني المتشدد الذي أصبح ذريعة لكل اعتداء على المسلمين هو إنتاج للغرب وأداة يتم استخدامها في اتجاهات مختلفة حسبما تقتضيه المصلحة الغربية، وقد نتج عن ذلك كله مجموعة من المظاهر يمكن تلخيصها في النقاط التالية:

الخوف الهستيري من الفكر الإسلامي في البلاد الإسلامية ذاتها لاسيما بعد ملاحظة بعض التجارب العربية مثل تجربة الجزائر.

تمزق الوحدة الهشة للمسلمين وانتشار حالة من فقدان الثقة المتبادلة على جميع المستويات داخليا وخارجيا.

تشويه صورة المسلمين في العالم واظهارهم بصورة المتوحشين والهمجيين ثم فيما بعد أدلجة هذه الصورة بمفهوم " الإرهاب " إلى درجة أنه كلما ذكر هذا المفهوم فإن الصورة المرافقة

له تتمثل في المسلمين والإسلام.

انتشار موجة من الكراهية والغضب الشديد ضد المسلمين والعرب بصفة عامة.

التعاطف مع إسرائيل لكونها محاطة بالإرهاب.

عزل القضية الفلسطينية عن الجموع الواسعة من الشعوب الاسلامية لتحصر في إطار قضية وطنية ثنائية، يتم حلها من خلال التفاوض الثنائي وفي الوقت نفسه العمل على بث روح الانقسام والصراع بين مختلف تنظيمات المقاومة .

السيطرة على ثروات وممتلكات الوطن العربي والإسلامي واحتلال بعض مناطقه بطريقة مباشرة.

الهوامش

1-مجموعة من المؤلفين، الاسلام والغرب:صراع في زمن العولمة، الكتاب رقم 49 الكويت، مجلة العربي، ط :1، سنة 2002، ص 136.

2-نفس المرجع، ص 137 .

3-محمد أركون، الفكر الأصولي واستحالة التأصيل، ترجمة هاشم صالح، دار الساقي بيروت، ط1، سنة 1999، ص 72.

4-السيد ياسين، حوار الحضارات: العرب الكوني والشرق المتفرد،القاهرة، مطابع الهيأة المصرية العامة لكتاب،سنة 2002، ص 170.

5-نفس المرجع، ص 170.

6-مجموعة من المؤلفين، مرجع سابق، ص 177.

7-نبيل دجاني (أجهزة الاعلام الغربية وموضوع الارهاب) مجلة المستقبل العربي، عدد 291 شهر ماي 2003، ص 33.

8-نفس المرجع، ص 33.

9-نفس المرجع، ص 30.

10-وحدة البحوث العربي (العرب والتحول العدائي في الرؤية الاستراتيجية الأمريكية)مجلة شؤون خليجية، القاهرة، مركز الخليج للدراسات الاستراتيجية، عدد 31 خريف 2002، ص 158.

11-نفس المرجع، ص 158.

12-السيد ياسين، مرجع سابق، ص 156.

13-وحدة البحوث، مرجع سابق، ص 156.

14-ابراهيم نافع، إنفجار سبتمبر بين العولمة والأمركة، القاهرة، الهيأة المصرية العامة للكتاب، سنة 2002، ص 6.

15-وحدة البحوث، مرجع سابق، ص 155.